المبحث الثالث

من لم يعمل خيراً قط

فإن ترك جملة الأعمال الظاهرة بالكلية فهذا موضع المعركة بين المتناحرين في هذه الأيام، فطائفة قالت: هو في النار خالداً فيها لأنه لم يعمل خيراً قط، والأخرى قالت: بل يخرج من النار بشفاعة رب العالمين بنص حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والذي فيه: (... **فيقول الله شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فَيُخْرِج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة** ...) [١]، فطائفه نفت لفظة (**لم يعملوا خيراً قط**) وحاولت إسقاطها من الحديث بتضعيفه رغم ثبوته في صحيح مسلم، أو حملها على ما لا يحتمله المعنى، والأخرى تمسكت بظاهرها؛ وظنت أنه لم يعمل خيراً قط على الحقيقة.

ولفصل النزاع بين الطائفتين إليك ما قاله الإمام ابن خزيمة، وتوجيهه له:

قال أبو بكر بن خزيمة: هذه اللفظة « **لم يعملوا خيراً قط** » من الجنس الذي يقول العرب: ينفي الاسم عن الشيء لنقصه عن الكمال والتمام، فمعنى هذه اللفظة على هذا الأصل، لم يعملوا خيراً قط، على التمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأُمر به، وقد بينت هذا المعنى في مواضع من كتبي .ا.هـ[٢] .

وقال: أقول: وهذا التوجيه يشهد له حديث المسيء صلاته مع وقوعها والمراد نفي صحة آدائها وبه استدل أبو عبيد رحمه الله في مثل هذا.

وكذلك حديث قاتل المائة نفس الذي جاء فيه: (**أنه لم يعمل خيراً قط**)

---

(١) قطعة من حديث طويل رواه مسلم برقم ٣٠٢ / ١٨٣ ، والطيالسي في مسنده برقم ٢١٧٩ .

(٢) كتاب التوحيد ص ٢٥٠- ٢٥١ .

لأنه توجه تلقاء الأرض الصالحة فمات قبل أن يصلها فرأت ملائكة العذاب أنه لم يعمل خيراً قط بعد، إذ لم يزد على أن شرع في سبيل التوبة ولهذا حكم الله بينهم وبين ملائكة الرحمة بقياس الأرض وإلحاقه بأقرب الدارين ثم قبض هذه وباعد تلك رحمة منه وإلا كان يهلك.

وفي حديث الرجل الذي أوصى أهله أن يحرقوه بعد وفاته خوفاً من الله: **(قال رجل لم يعمل خيراً قط : إذا مات فحرقوه ...)** ولمسلم: **(قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فاحرقوه ...)** وقد فسرتها الرواية التي بعدها **(أسرف رجل على نفسه ـ أو ـ أسرف عبد على نفسه)**.

ومما يؤيد ذلك أنه قد ورد في بعض روايات حديث الجهنميين هذا أن هذا الرجل منهم، حيث ذكرت أنه آخر أهل النار خروجاً منها)[1] .

فتعال معي لنفهم كلام الإمام ابن خزيمة حتى يندمل الجرح، ويأتلف الصف، فأعرني انتباهك، فالأمر جد خطير، وكما ذكرتُ الطريق زلق والناجون قليل، ولكي نقف على الفهم الصحيح لهذا الكلام النفيس الذي يجب أن يُنقش على الصدور بماء الذهب، سنستعرض معاً هذه القواعد .

(١) نقلاً من قراءة نقدية ص ٣٩٩، ٤٠٠ .

القاعدة الأولى

أن الله لا يقبل من العبد إلا الأعمال الصالحة (١)

اعلم أن الله لا يقبل من العبد إلا الأعمال الصالحة، والعمل الصالح هو الذي تتوافر فيه شروط القبول وهما شرطان: الإخلاص لله . والمتابعة للرسول ﷺ .

فهما شرطا صحة العمل وقبوله، وإن غاب أحدهما أو كلاهما أصبح ذلك العمل حابطاً مردوداً لا يقبله الله ، لأن هذين الشرطين هما مضمون الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ .

يقول ابن عثيمين: ولأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها إذ لا صحة لعمل ولا قبول إلا بالإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ ؛ فبالإخلاص لله تتحقق شهادة أن لا إله إلا الله، وبالمتابعة لرسول الله تتحقق شهادة أن محمداً عبده ورسوله (٢) .

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وجماع الدين أصلان أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع (لا نعبده بالبدع) كما قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، ففي الأولى : (أي في الشهادة الأولى) أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية : أن محمداً ﷺ هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدِّق خبره ونطيع أمره، وقد بين ﷺ ما يُعْبَد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلال . ا .هـ (٣) .

---

(١) هذه القاعدة من أعظم قواعد هذا الدين ؛ لذا بسطتُ فيها القول في الاصل الثاني من الكتاب الاصل "الاصول الاربعة" اسال الله أن يوفقني فيه وفي غيره لما يحب ويرضى وان ييسر لى إتمامه عما قريب.

(٢) شرح أصول الإيمان لابن عثيمين ص ٩ – ١٠ .

(٣) العبودية لابن تيمية ص ١٣٧ .

وعن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قال: " أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر رضي الله عنه « **إنما الأعمال بالنيات** » (١)، وحديث عائشة رضي الله عنها « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » (٢)، وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه « **الحلال بيِّن والحرام بين** » (٣). (٤).

قال ابن رجب: ومعنى ما رواه الإمام أحمد أن أصول الإسلام ثلاثة أحاديث: ... أن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف عن الشبهات، وهذا كله تضمنه حديث النعمان بن بشير وإنما يتم ذلك بأمرين، أحدهما: أن يكون العمل ظاهره موافقة السُّنَّة، وهذا هو الذي يتضمنه حديث عائشة " من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد "، والثاني: أن يكون العمل في باطنه يُقصد به وجه الله كما تضمنه حديث عمر رضي الله عنه " **الأعمال بالنيات** " (٥).

وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون صواباً خالصاً، فالصواب أن يكون على السُّنَّة وإليه الإشارة بقوله ﴿ **فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ والخالص أن يخلُص من الشرك الجلي والخفي وإليه الإشارة بقوله: ﴿ **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ (٦).

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ:

العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان: أحدهما: أن لا يُعبد إلا الله. الثاني: أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع، قال تعالى:

---

(١) البخاري برقم ١، ٥٤، ٢٣٩٢، ٣٦٨٥، ٤٧٨٣، ٦٣١١، ٦٥٥٢، ومسلم برقم ١٥٥/ ١٩٠٧، أبو داود برقم ٢٢٠١، وابن ماجة برقم ٤٢٢٧.

(٢) البخاري برقم ٢٥٥٠، ومسلم برقم ١٧ / ١٧١٨، وابن ماجة برقم ١٤.

(٣) البخاري برقم ٥٢، ١٩٤٦ ومسلم برقم ١٠٧ / ١٥٩٩، والترمذي برقم ١٢٢١، وابن ماجة برقم ٣٩٨٤، والنسائي برقم ٤٤٤٨.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٥.

(٥) السابق ص ١٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٦٥).

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

[الكهف : ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء : ١٢٥] .

فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله ﷺ ،وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السُّنَّة فإنها ـ وإن قالها من قالها وعمل بها من عمل ـ ليست مشروعة، فإن الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح، كما أن من يعمل ما لا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ وقوله: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: " اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً "، وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٢] .

قال: أخلصه وأصوبه، قالوا يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه ؟ ، قال: " إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السُّنَّة " . أ هـ [١] .

ولذلك ساق الآجري بسنده عن عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود

---

(١) العبودية لابن تيميه رحمه الله ص ٣٩- ٤٠ .

رضي الله عنهما قالا : لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا عمل إلا بقول، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا نية إلا بموافقة السُّنَّة (١) .

وعن الحسن قال: (الإيمان قول، ولا قول إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنيه، ولا قول وعمل ونية إلا بسُنَّة) (٢) .

قال ابن رجب: (فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء) (٣) .

قال ابن القيم: (العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه) (٤) .

ومعنى ذلك أن العمل الصالح المتقبل لابد وأن يتوافر فيه هذان الشرطان : الإخلاص والمتابعة، وكل عمل لا يجتمع فيه هذان الشرطان كان حابطاً، مردوداً غير مقبول عند الله ـ أعاذنا الله وإياكم من هذا الخسران المبين ـ وإن اجتمعا فإن ذلك العمل يكون صحيحاً مقبولاً، ولصاحبه عليه أجر، وبه تبرأ الذمة أمام الله ، ويسقط عنه به الفرض لأنه فعل ما أمره الله به، وبهذا ينجو صاحب هذا العمل إن شاء الله من النار ويكون من أهل الجنة.

وكل عمل لا يتوافر فيه هذان الشرطان، فهو غير صالح، مردود على صاحبة، لا يقبله الله ، ومن نواقض هذين الشرطين: الشرك الأصغر ومنه الرياء والسمعة، والبدعة غير المكفرة بكل صورها، واتباع الهوى، وترك ما لا يصح العمل إلا به، فكل من اتصف عمله بشيء من هذه الأدران فعمله حابط مردود، وإن بقيت له صورته في الدنيا.

---

(١) الشريعة ص ١٢٧ برقم ٢٨٠ أثر رقم ١٣٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ برقم ٢٨١ أثر رقم ١٣٥ .
(٣) جامع العلوم والحكم ٦٧ .
(٤) الفوائد ص ٦٧ .

ويشهد لذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل: ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم ألقي في النار** » [١] .

فهؤلاء الثلاثة، بقيت لهم صور أعمال وأسماء، لا تغنيهم، ولا تسمنهم من جوع، لأنهم أفسدوها برياء وسمعة، فبقيت لهم صورها وأسماؤها لا روح فيها، وظنوا أن مجرد الصور والأسماء ستنفعهم يوم القيامة، ولكن هيهات لعمل غير صالح أن يُقبل، (فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) [٢] .

فالأعمال إما أن تكون صالحة مقبولة وهي ما توافر فيها شرطي القبول، وإما أن تكون غير صالحة لخلوها من أحد شرطي القبول، وهي أعمال حابطة مردودة.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٥٢ / ١٩٠٥ ، والنسائي في السنن برقم ٣١٣٧ ، وفي الكبرى برقم ٤٣٤٥ ، وأحمد برقم ٨٢٦٠ .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم برقم ٦٥ / ١٠١٥ ، والترمذي برقم ٢٩٨٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١١٥٩ .

القاعدة الثانيـــة
أن الله ذكر في كتابه أن دخول الجنة مرهون بأن يعمل العبد بجوارحه عمـــلاً صالحـــاً

يقول الآجري : اعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإياكم ـ يا أهل القرآن، ويا أهل العلم، ويا أهل السُنن والآثار،ويا معشر من فقههم الله في الدين بعلم الحلال والحرام، أنكم إن تدبرتم القرآن كما أمركم الله علمتم أن الله أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله ﷺ : العمل، وأنه لم يثنِ على المؤمنين بأنه قد رضى عنهم وأنهم قد رضوا عنه، وأثابهم على ذلك الدخول إلى الجنة، والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح، وقرن مع الإيمان العمل الصالح ،لم يدخلهم الجنة بالإيمان وحده حتى ضم إليه العمل الصالح، الذي قد وفقهم له، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتى يكون مصدقاً بقلبه، وناطقاً بلسانه، وعاملاً بجوارحه، لا يخفي من تدبر القرآن وتصفحه وجده كما ذكرت.

واعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإياكم ـ أني قد تصفحت القرآن فوجدت فيه ما ذكرته في ستة وخمسين موضعاً من كتاب الله : أن الله تبارك وتعالى لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم، وبما وفَّقهم له من الإيمان به، والعمل الصالح، وهذا رد على من قال: الإيمان: المعرفة، ورد على من قال: المعرفة والقول وإن لم يعمل نعوذ بالله من قائل هذا.

فإن قال قائل: فاذكر هذا الذي بينته من كتاب الله ليستغني غيرك عن التصفح للقرآن. قيل له: نعم، والله تعالى الموفق لذلك، والمعين عليه.

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**

وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة :٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة :٢٧٧] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران :٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾ ﴾.

[النساء : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ ﴾.

[النساء : ١٢٢] (١).

ثم ذكر تمام الستة وخمسين موضعاً (٢) ثم قال ـ رحمه الله ـ ميزوا رحمكم الله قول مولاكم الكريم : هل ذكر الإيمان في موضع واحد من القرآن إلا وقد قرن إليه العمل الصالح ؟.

وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠] .

فأخبر جل ثناؤه بأن الكلم الطيب حقيقته : أن يُرفع إلى الله بالعمل الصالح، فإن لم يكن عمل بطل الكلام من قائله، ورُد عليه، ولا كلام أطيب وأجل من التوحيد، ولا عمل من عمل الصالحات أجل من أداء الفرائض.

ثم ساق بسنده عن الحسن قال : قال قوم على عهد رسول الله ﷺ : إنا

---

(١) الشريعة للآجري ص ١١٩– ١٢٠ .

(٢) انظر للاستزادة، الشريعة للآجري ص ١٢٠– ١٢٥ .

لنحب ربنا ، فأنزل الله بذلك قرآنا فقال جل ثناؤه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾ .

[آل عمران : ٣١].

فجعل اتباع نبيه محمد ﷺ عَلَماً لحبه وكذب من خالفه ، ثم جعل على كل قول دليلاً من عمل يصدقه، ومن عمل يكذبه، فإذا قال قولاً حسناً وعمل عملاً حسناً، رفع الله قوله بعمله، وإذا قال قولاً حسناً وعمل عملاً سيئاً، رد الله القول على العمل وذلك في كتاب الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] (١) .

(١) الشريعه ص ١٢٥، ١٢٦ .

القاعدة الثالثـــة

أن الأعمال قد يظهر أثرها على العبد في الدنيا، وفي الآخرة يظهر أثر العمل الصالح على صاحبـــه، والعمل المردود لا يظهر أثر صورته على صاحبه

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : (ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله رداءه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر) (١) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق) (٢) .

قال إبراهيم بن أدهم: إن للذنوب ضعفاً في القوة، وقسوة في القلب، وإن للحسنات قوة في البدن، ونوراً في القلب (٣) .

قال ابن تيمية: قال بعض السلف : ما أسر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وقد قال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد : ٣٠] (٤) .

قال ابن القيم: وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتى إن الرجل الطيب البَر لتشُم منه رائحة طيبة؛ وإن لم يمس طيباً، فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس، والمزكوم الذي أصابه الهوى لا يشم لا هذا ولا ذاك، بل زكامه يحمله على الإنكار (٥) .

---

(١) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ص ٢٦ .

(٢) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ص ٢٦ ، في الجواب الكافي ص ٥٦ .

(٣) رواه البيهقي في شـ ب الإيمان برقم ٧٢٢٠ .

(٤) مجموع الفتاوى ٧ / ٤٠٨ .

(٥) الوابل الصيب ص ٢٦ .

فمن صَفَتْ سريرته، واستنارت بصيرته، وطهُرت نفسه، وسلِمَت فطرته، فإنه يرى في الدنيا آثار الأعمال الصالحة والمردودة على عامليها، أما في الآخرة فتظهر آثار الأعمال الصالحة على أصحابها.

قال ابن القيم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ أي تُختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته؛ ليظهر لك باطنه وما خفي منه، والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه أوشيناً فيها، والمعنى تُختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة وهي أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياءً، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظُلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها (١).

ومثال ذلك: ما ورد في حديث النور الذي يعطاه من نطق بالشهادة، والذي رواه الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجمع الله الناس يوم القيامة ... فيُعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يُعطي نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطي دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطي نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفيء مرة،**

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٦٤.

فإذا أضاء قدَّمه، وإذا طفيء قام، فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض مزلة، فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرجْلِ ويرمل رملاً، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، قال: يجر يداً ويعلِّق يداً، ويجر رِجلاً ويعلِّق رجلاً، وتضرب جوانبه النار، قال: فيخلُصوا، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منْكِ بعد الذي أراناكِ، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً » (١) .

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**والذي نفسي بيده لا يكْلَم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكْلَم في سبيله إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك**) (٢) .

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ، ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده؛ لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**) (٣) .

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: (**إن أمتي يُدْعَون يوم القيامة غُراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل**) (٤) .

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه برقم ٣٤٢٤، والطبراني في الكبير برقم ٩٧٦٣، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٥٩١، وفي شرح العقيدة الطحاوية برقم ٤٦٩ .

(٢) رواه البخاري برقم ٢٦٤٩، والترمذي برقم ١٦٥٦، والطبراني في الأوسط برقم ٨٧٨٧ .

(٣) رواه مسلم برقم ١٦٣ / ١١٥١، والبخاري برقم ١٧٩٥، والنسائي برقم ٢٢١٦، وابن خزيمة برقم ١٨٩٦، وابن حبان برقم ٢٤٢٣ .

(٤) رواه البخاري برقم ١٣٦، ومسلم برقم ٣٥ / ٢٤٦، وأحمد برقم ٩١٨٤ .

قال ابن القيم - رحمه الله - عن ظهور أثر هذه الصفات والتي منها طيب ريح خَلوف فم الصائم، والمكلوم (المجروح) في سبيل الله يوم القيامة خاصة: لأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر، فيظهر للخلق طِيب ذلك الخلوف على المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر، وتبدو على الوجوه، وتصير علانية، ويظهر فيه قبح رائحة الكفار، وسواد وجوههم [١].

وبذا يتضح أنه من عمل عملاً صالحاً أكرمه الله به في الدنيا، وفي الآخرة يكرمه بأن يُظهِر عليه علامة على قدر هذا العمل بها يُعرف.

أما الأعمال المردودة فلا يظهر على أصحابها من آثارها شيئاً، لأنها كانت مجرد صور أعمال لا روح فيها في الدنيا، أما في الآخرة فيقول عنها المولي: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

يقول ابن كثير: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ الآية، هذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً، وعلى الشريعة المرضية؛ فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا؛ فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [٢].

وفي تفسير الجلالين قالا: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ عمدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف في الدنيا ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ هو ما يُرى في الكوى التي عليها الشمس كالغبار المفرق: أي مثله في

---

(١) الوابل الصيب ص ٢٥.

(٢) عمدة التفاسير (٢/٦٠٨).

عدم النفع به؛ إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه، ويجازون عليه في الدنيا [١]، ومثاله: قوله تعالى عن من تصدق وأتبع صدقته بالمن والأذى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)** ﴾ [البقرة :٢٦٤].

وورد في من صام وقال زوراً وعمل به عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**) [٢] .

وعن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: (**رُب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر**) [٣] .

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال للمسيء صلاته رغم أنه صلى: (**ارجع فصلِ فإنك لم تصلِ**) [٤] .

ومن ذلك يتضح أنه من عمل لله عملاً صالحاً كتب له به أجر، وأظهر عليه يوم القيامة أثره علامة على قدر هذا العمل بها يُعرف، أما من عمل عملاً حابطاً مردوداً فليس له به أجر، وبذا لا يظهر عليه أية علامة فلا يعرفه أحد.

---

(١) تفسير الجلالين ٤٧٣ .

(٢) رواه البخاري برقم ١٨٠٤، ٥٧١٠ ، وأبو داود برقم ٢٣٦٢ ، والترمذي برقم ٧٠٧ ، وأحمد برقم ٩٨٣٨ ، وابن حبان برقم ٣٤٨٠ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٨٠٩٥ ، والنسائي في الكبرى برقم ٣٢٤٦ .

(٣) رواه أحمد برقم ٨٨٤٣ ،وقال الأرنؤوط: إسناده جيد، وابن خزيمة برقم ١٩٩٧ ، وقال الأعظمي: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير برقم ١٣٤١٣ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٨٠٩٧ ، وصححه الالباني في الجامع الصغير برقم ٣٤٩٠ .

(٤) رواه البخاري برقم ٧٢٤ ، ومسلم برقم ٤٥ / ٣٩٧ ، وأبو داود برقم ٨٥٦ ، والترمذي ٣٠٣ ، وسنن النسائي برقم ٨٨٤ ، وابن ماجة برقم ١٠٦٠ ، أحمد برقم ٩٦٣٣ ، وابن خزيمة برقم ٤٦١ .

القاعدة الرابعة

يُفترض[١] أن العاملين ينقسمون إلى أقسام

لقد انطلقت في هذه القاعدة تأسيساً على ما تم تقريره وتحقيقه في شرط المحبة من أن عمل القلب أصل في عمل الجوارح، وعمل الجوارح تبع لعمل القلب، وتأثير كل منها في الآخر وتأثره به.

يقول ابن تيمية: عمل القلب أصل لعمل الجوارح، والقلب هو ملك البدن كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : القلب ملك، والأعضاء جنوده؛ فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، وفي الصحيحين عن النَّبي ﷺ أنه قال: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب»**[٢] . [٣] .

فانشأتُ هذا التقسيم على أساس وجود كل من عمل القلب وعمل الجوارح في ذات الشخص مع دواعي وجود كل منهما أو انتفاؤه، وليس هذا التقسيم بدعاً من القول ابتدعته من عند نفسي، فقد قسَّم الله المكلفين إلى سابقٍ بالخيرات ومقتصدٍ، وظالمٍ لنفسه، وقسَّم الإمام ابن القيم المكلفين إلى مراتب وطبقات في الدار الآخرة،والفارق بينه وبيني،أنه ـ رحمه الله ـ قسَّم المكلفين بحسب طبقاتهم في الآخرة،أما أنا فقسَّمتُهم على حسب ما معهم من عمل القلب وعمل الجوارح في الدنيا وأثر ذلك عليهم في مسألة (الأسماء والأحكام) [٤] .

---

(١) الافتراض هو وضع احتمال وإثبات مدى صحته فإن ثبتت صحته أصبح فرضاً.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٢ ، ومسلم برقم ١٠٧ / ١٥٩٩ ، وابن ماجة برقم ٣٩٨٤ ، والدارمي برقم ٢٥٣١ ، وابن حبان برقم ٢٩٧ ، والطبراني في الصغير برقم ٣٨٢ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٠١٨٠ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٣ / ١٣٤ .

(٤) مسألة الأسماء والأحكام تعني ما اسم العبد في الدنيا هل هو مؤمن، أم كافر، أم ناقص الإيمان ؟ وحكمه في الآخرة، هل من اهل الجنة، أم من أهل النار، أم ممن يدخل النار ثم يخرج منها ويخلد في الجنة ؟ انظر طريق الهجرتين ص ٣٦٥ ، لابن القيم.

وإليك بيان هذه الأقسام:

الأول: عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً كاملةً كماً وكيفاً (١) .

أولئك الذين اصطفاهم الله واجتباهم لتبليغ دينه لعباده، وهم الرسل والأنبياء وأرفعهم مكانة أولو العزم منهم وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾** ﴾ [الأحزاب: ٧] . وقوله تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾** ﴾ [الشورى :١٣] .

الثاني: عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كماً كاملةً كيفاً (٢) .

وهؤلاء منهم من عمل بمعظم ما وصل إليه، وهذا هو السابق بالخيرات، ومنهم من عمل ببعض ما وصل إليه، وهذا هو الظالم لنفسه، ومنهم من توسط الأمر؛ فهو دون السابق بالخيرات وفوق الظالم لنفسه، وهذا هو المقتصد، وأرفعهم مكانة الصديقون، وأقلهم من رجحت سيئاته على حسناته ممن أسرف على نفسه في المعاصي مع إقراره بالتوحيد.

قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾** ﴾ .

[فاطر : ٣٢] .

---

(١) أقصد أنه عمل بكل ما وصل إليه من أمور الدين وهذا هو الكمال الكمي ، ملتزماً فيها بشرطي القبول وهذا هو الكمال الكيفي .

(٢) أقصد أنه عمل بمعظم أو بعض ما وصل إليه من أمور الدين ملتزماً فيها بشرطي القبول.

قال ابن كثير: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمة، ثم قسَّمهم إلى ثلاثة أنواع: فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات [١].

وهؤلاء ينقسمون يوم القيامة قسمين:

الأول: من سيدخل الجنة من أول وهلة، وأولهم دخولاً أكملهم أعمالاً وأعظمهم حسنات، وآخرهم دخولاً أصحاب الأعراف وهم من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم وذلك بعد أن يُحبسوا على الأعراف فترة من الزمن.

الثاني: من رجحت سيئاتهم على حسناتهم فهم في مشيئة الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، فمنهم من سيُدخَلون النار يتطهرون فيها من سيئاتهم، وكل واحد يناله من العذاب على قدر ما معه من السيئات، وبعد ذلك يأذن الله للشفعاء من الملائكة والنبيين والمؤمنين فيُشَفِّعُهم فيهم، وفي كل مرة يحد الله للشفعاء حداً فيعرفون من ينطبق عليه هذا الحد بما يظهر عليه من علامات أعماله التي يُظهرها عليه ربه [٢] فيخرجونه من النار إلى الجنة.

ويبقى منهم بقية هم الذين أسرفوا على أنفسهم لدرجة أنهم يصح أن يقال عنهم: (لم يعملوا خيراً قط)، لضآلة ما معهم من الخير، ولكن معهم عمل قلب

---

(١) عمدة التفاسير ٣ / ٩٧ .

(٢) مثل من كان مصلياً يعرفونه بموضع سجوده لأن النار لا تأكل موضع السجود وذلك لما رواه النسائي في سننه أن عن عطاء بن يزيد قال: كنت جالساً إلى أبي هريرة وأبي سعيد فحدَّث أحدهما حديث الشفاعة والآخر منصت قال: فتأتي الملائكة فتشفع، وتشفع الرسل، وذكر الصراط قال: قال: رسول الله ﷺ: « **فأكون أول من يجيز، فإذا فرغ الله من القضاء بين خلقه، وأخرج من النار من يريد أن يُخرج، أمر الله الملائكة والرسل أن تشفع، فيُعرَفون بعلاماتهم، إن النار تأكل كل شيء من ابن آدم إلا موضع السجود، فيُصب عليهم من ماء الجنة؛ فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل** » سُنن النسائي برقم ١١٤٠ .

في غاية الضعف، لدرجة أنه لم يقو على زجرِهم عن المعاصى، أو دفعِهم للطاعة، ومنهم الذي قال لأولاده إذا مات أن يحرقوه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**قال رجل لم يعمل خيراً قط فإذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال :لم فعلت؟ قال من خشيتك وأنت أعلم، فغفر له**) [١]، وفي رواية مسلم (قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله) وفي الرواية التي بعدها (أسرف رجل على نفسه)، وفي الرواية التي عند أحمد أنه آخر الناس خروجاً من النار، وذلك بشفاعة الشفعاء وليس مطلقاً [٢]، فقد ثبت خروج أناس بعده بشفاعة أرحم الراحمين بعدما يشفع الشفعاء.

وبالنظر إلى آخر هذا القسم، يظهر أن لهم بعض الأعمال الصالحة، ولكنها ضئيلة جداً لدرجة أنها لا تُعَدُّ شيئاً يُذكر، ـ كذلك الذي كان يسامح الناس في البيع والشراء، والذي اعترف بالبعث والميعاد ـ (أي لم يعملوا خيراً قط)، ولذلك سيتعرف عليهم الشفعاء بما معهم من أعمال ضئيلة صالحة فيُخرجونهم من النار.

الثالث:عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كماً وكيفاً [٣].

هؤلاء قوم لهم صور بعض الأعمال الحابطة المردودة التي لم تتوافر فيها شرطا القبول، عملوها في الدنيا ولم يؤجروا عليها لعدم صلاحها، فهم لم يعملوا خيراً

---

(١) رواه البخاري برقم ٧٠٦٧ ، ومسلم برقم ٢٤ / ٢٧٥٦ .

(٢) روى أحمد في مسنده برقم ١٥ حديث طويل من حديث ابي بكر رضي الله عنه وفيه: «ثم يقول الله انظروا في النار هل تلقون من أحد عمل خيراً قط ؟ ، قال: فيجدون في النار رجلاً، فيقول له :هل عملت خيراً قط ؟، فيقول: لا، غير أني كنت أسامح الناس في البيع والشراء، فيقول الله : اسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبيدى، ثم يُخرِجون من النار رجلاً، فيقول له: هل عملت خيراً قط؟ فيقول: لا، غير أني قد أمرت ولدي إذا مت فاحرقوني بالنار » ، قال الأرنؤط: إسناده حسن.

(٣) أي عمل ببعض ما وصل إليه من أمور الدين غير ملتزمٍ فيها بشرطي القبول.

قط، لأنهم لم يعملوا أعمالاً صالحة قط، فلا تظهر عليهم علامة يُعرفون بها، ولذا لا يتعرف عليهم الشفعاء فيتركونهم في النار ويقولون لربهم: (لم نذر فيها خيراً)، ولكن انتبه فقد دفعهم لعمل هذه الأعمال الحابطة المردودة عمل قلب في غاية الضعف لم ينهض بهم ليصلحوا أعمالهم، ولم يذرهم بلا عمل، ولما كانوا من الخفاء بمكان لا يعلمه إلا الله في الدنيا والآخرة، كان جَلَّ شأنه أعلم بهم في الدنيا، ومخرجهم من النار في الآخرة، رغم أنهم لم يعملوا خيراً قط.

الرابع: عمل بقلبه ولم يعمل بجوارحه وهؤلاء صنفين:

الصنف الأول: لم يعمل بجوارحه لأنه عجز عن العمل:

قال ابن تيمية: فإذا أقرَّ القلبُ إقراراً تاماً بأن محمداً رسول الله، وأحبه محبة تامة، امتنع مع ذلك أن لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزاً لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بهما (١).

قال ابن القيم: الايمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له؛ وإن حُقِن به الدماء، وعُصِم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له؛ إلا إذا تعذَّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك (٢).

هؤلاء معهم عمل قلوبهم ولكن حال دون ظهور أعمال على جوارحهم أعذار شديدة، مثل:

[١] من مات قبل بلوغ المقصود:

﴿أ﴾ مثل الذي قتل مائة نفس وأراد أن يتوب:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: **(كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على راهب**

(١) مجموع الفتاوي ١٠ / ١٧١.
(٢) الفوائد ص ١١٧.

فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟، فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلِق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء،فانطلَق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاه ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[١].

﴿ ب ﴾ من قُتل في المعركة، أو مات من فوره بعد إسلامه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد**)[٢].

[٢] من نطق بالشهادة في مرض موته ثم مات.مثاله:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النَّبي ﷺ فمرض فأتاه النَّبي يعوده فقعد عند رأسه فقال له: (**أسلم**) . فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ ، فأسلم فخرج النَّبي ﷺ وهو يقول: (**الحمد لله الذي أنقذه من النار**)[٣] ، وفي روايات الإمام أحمد أن هذا الغلام مات بعد نطقه

---

(١) رواه مسلم برقم ٤٦ / ٢٧٦٦ ، وأحمد برقم ١١٧٠٥ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٥٦١٤ ، وفي شُعب الإيمان برقم ٧٠٦٦ .

(٢) رواه البخاري برقم ٢٦٧١ ، ومسلم برقم ١٢٨ / ١٨٩٠ ، والنسائي برقم ٣١٦٥ ، وابن ماجة برقم ١٩١ ، وأحمد برقم ٩٩٧٧ ، وابن حبان برقم ٢١٥ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٨٣١٤ .

(٣) رواه البخاري برقم ١٢٩٠ ، وأبو داود برقم ٣٠٩٥ ، وابن حبان برقم ٤٨٨٤ ، وأحمد برقم ١٤٠١٠ .

بالشهادة، ولذلك كان النَّبي ﷺ يلح على عمه في مرض موته بالنطق بالشهادة، فقد ورد عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: (**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : (**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**) . فأنزل الله تعالى فيه ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)** ﴾ [التوبة : ١١٣] (١) .

[٣] من نطق بالشهادة ولم يعرف غيرها لاندراس الدين، أو لعزلة غير مقصودة، في منأى عن مخالطة البشر كجزيرة أو فلاة بعيدة ، ومثاله:

ما ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**يَدْرُسُ الإسلام كما يدرُسُ وشي الثوب ، حتى لايدري ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وَلَيُسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقي في الأرض منه أية، وتبقى طوائف من الناس، والشيخ الكبير، والعجوز، يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله، فنحن نقولها**) فقال له صلة: ما تغنى عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نُسك، ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة. ثم ردها عليه ثلاثاً. كل ذلك يُعْرِض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه في الثالثة فقال ياصلة تنجيهم من النار . ثلاثاً (٢) .

---

(١) رواه البخاري بأرقام ١٢٩٤، ٣٦٧١، ٤٣٩٨، ٤٤٩٤ ، ومسلم برقم ٣٩ / ٢٤ ، وأحمد برقم ٢٣٧٢٤ ، والنسائي في السنن برقم ٢٠٣٥ .

(٢) رواه ابن ماجة برقم ٤٠٤٩ ، والحاكم في المستدرك برقم ٨٤٦٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٠٢٨ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨٧ ، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٤٠٣٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات؛ حتى لا يبقى من يبلِّغ ما بعث الله به رسوله؛ من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلِّغه ذلك، ومثل هذا لا يُكَفَّر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والايمان، وكان حديث العهد بالاسلام، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يُحكم بكفره؛ حتى يعرف ما جاء به الرسول ولهذا جاء في الحديث (يأتي على الناس) [١]، وذكر الحديث المتقدم.

قال العلامة الألباني: وهذا الحديث الصحيح يستفاد منه أن الجهل قد يبلغ ببعض الناس أنهم لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادة، وهذا لا يعني أنهم يعرفون وجوب الصلاة وسائر الأركان ثم هم لا يقومون بها، كلا ليس في الحديث شيء من ذلك؛ بل هم في ذلك ككثير من أهل البوادي والمسلمين حديثاً في بلاد الكفر لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين [٢].

[٤] من نطق بالشهادة ثم ألمَّ به مرضٌ أفقده السيطرة على جوارحه قبل أن يعمل بها أي عمل، أو خاف خوفاً شديداً حال دون إظهاره لما يبطنه ثم مات.

فهؤلاء معهم عمل قلب بكل حال أقوى من القسم الذي يسبقه، ولكنهم فقدوا القدرة على العمل تماماً، فليس لهم عمل صالح ظاهر، فحالهم مستور في الدنيا والآخرة [٣] فلا يعلمهم إلا الله.

انتبه واعلم: أن من هذا الصنف أناساً عمل قلوبهم بلغ من القوة إلى أنهم

---

(١) مجموع الفتاوى ١١ / ٢٣٢.

(٢) حكم تارك الصلاة ص ٥٥.

(٣) الذي يدلك على أن حالهم مستور في الدنيا والآخرة اختصام الملائكة في من قتل مائة نفس، فلو كان ظاهراً لما اختلفوا فيه، والذي يدلك على وجود عمل قلبه قول ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، والذي يدلك على أنه لم يعمل بجوارحه خيراً قط قول ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فقد عمل بقلبه ولم يقدر على العمل بجوارحه. فهذا الصنف لن يدخل النار رغم انه لم يعمل خيراً قط لما يقوم بقلوبهم من الأعمال.

يدخلون الجنة من أول وهلة فتأمل قول النَّبي ﷺ في الغلام اليهودى: (**الحمد لله الذي أنقذه من النار**) ، ومنهم من أسرف على نفسه بالمعاصي فتأمل حال قاتل المائة نفس وكذا صاحب البطاقة التي تطيش بالسجلات.

عن عبد الله بن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول :احضر وزنك فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟، فقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء** »[1] .

يقول ابن القيم: فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يُعذَّب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات : لما

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٣٩ ، وقال حسن غريب، وابن ماجة برقم ٤٣٠٠ ، وأحمد برقم ٦٩٩٤ ، وقال الأرنؤوط: إسناده قوى رجاله ثقات، وابن حبان برقم ٢٢٥ ، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك برقم ٩ ، وقال: حديث صحيح ولم يخرج في الصحيحين وهو على شرط مسلم، ووافق الذهبى، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٨٣ ،وصححه الألباني في صحيح ١٧٧٦ ،وفي مشكاة المصابيح برقم ٥٥٥٩ ، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٣٥ .

لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة [١] ... ثم قال: فهكذا الأعمال والعُمَّال عند الله والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً والله المستعان [٢].

يقول ابن أبي العز: فإن المنافقين يقولونها (أي الشهادة) بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة؛ ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يُعذَّب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار [٣].

وهذا الصنف أناس لم يعملوا خيراً قط لأنهم لم يتمكنوا من العمل لأعذار شديدة، لكن معهم عمل قلب، فيدخلون بإذن الله ورحمته الجنة من أول وهلة مع القسم الأول.

الصنف الثاني: لم يعمل بجوارحه قط مع القدرة، غير جاهل، ولا معذور:

وهذا الصنف يستحيل وجوده شرعاً وعقلاً، لأنه يستحيل أن يوجد في القلب أدنى قدر من المحبة وما تبعها من أعمال القلوب تجاه عمل من أعمال الجوارح، ولا تتكون فيه إرادة ليعمل هذا العمل ولو مرة، رغم قدرته على العمل، وعدم وجود ما يمنعه من العمل، فمن لم يعمل بجوارحه قط مع القدرة التامة ووجود العلم، فهذا يدل على عدم وجود عمل القلب أصلاً، وطالما زال عمل القلب زال الإيمان.

---

(١) مدارج السالكين ٣٧١ .

(٢) السابق ٣٧٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٣٣٥ .

قال الآجري: فالأعمال ... حكم الله تعالى ـ بالجوارح: تصديق للإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدِّق الإيمان بعمل جوارحه: مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمناً، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه العمل تكذيباً منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقاً منه لإيمانه، وبالله تعالى التوفيق (١).

قال ابن تيمية: وأما الإرادة الجازمة فلابد أن يقترن بها مع القدرة فعل المقدور؛ ولو بنظرة، أو حركة رأس، أو لفظة، أو خطوة، أو تحريك بدن (٢).

وقال أيضاً: وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يُتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب) (٣)

وقال ابن القيم: ولا يجزىء باطن لا ظاهر له؛ إلا إذا تعذَّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلُّف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته (٤).

وقال ابن تيمية: إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعاً، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري (٥).

وقال أيضاً: والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محباً لله ورسوله، مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه (٦).

---

(١) الشريعة للآجري ١١٧.
(٢) مجموع الفتاوى ٧ / ٣٤٨.
(٣) مجموع الفتاوى ٧ / ١٣٥.
(٤) الفوائد ص ١١٧.
(٥) مجموع الفتاوى ١٠ / ١٧١.
(٦) مجموع الفتاوى ٧ / ١٢٨.

وقال ابن أبي العز الحنفي: ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده، عدم التصديق المستلزم للطاعة (١) .

وسُئل سفيان بن عيينة عن الإرجاء فقال: يقولون الإيمان قول، ونحن نقول الإيمان قول وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصراً بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم وليس بسواء، لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر هو كفر (٢) .

وقال ابن تيمية: وإنما قال الأئمة بكفر هذا لأن هذا فرض ما لا يقع، فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئاً مما أُمر به من الصلاة، والزكاة،والصيام، والحج، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات مثل الصلاة بلا وضوء، وإلى غير القبلة، ونكاح الأمهات، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن، بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه(٣).

وقال: إذا تبين هذا،وعُلِم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب، وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة،والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة؛يستلزم وجود المراد، وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه،زالت الشبه العلمية في هذه المسألة (٤).

وقال: وهنا أصول تنازع الناس فيها، منها: أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر منه شيء قط على اللسان و الجوارح، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ ، فالذي عليه السلف، والأئمة، وجمهور الناس، أنه لابد من ظهور موجب ذلك على الجوارح، فمن قال أنه يصدّق الرسول، ويحبه ويعظّمه بقلبه، ولم يتكلم بالإسلام قط، ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف، فهذا لا يكون

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٤١ .
(٢) السُّنَّة لعبد الله بن أحمد ص ١٧٦ برقم ٧٤٥ .
(٣) مجموع الفتاوى ٧ / ١٤٩ .
(٤) مجموع الفتاوى ٧ / ٣٧٩ .

مؤمناً في الباطن، و إنما هو كافر (١) .

وقال: ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازماً له، أو جزءاً منه، فهذا نزاع لفظي، كان مخطئاً خطئاً بيِّناً، وهذه بدعة الإرجاء؛ التي أعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها، وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف (٢) .

وقال: ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج؛ لأن إيمانه بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله؛ يقتضي الإستسلام لله، والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والإنقياد باطناً ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيماناً جازماً امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم إنتفاء الإيمان القلبي التام، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع، إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حباً جازماً وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك (٣) .

وقال: هذه المسألة (أي قتال من ترك الصلاة والزكاة) لها طرفان:

أحدهما: في إثبات الكفر الظاهر.

والثاني: في إثبات الكفر الباطن.

فأما الطرف الثاني فهو مبني على مسألة كون الإيمان قولاً وعملاً كما تقدم، ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً إيماناً ثابتاً في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤ / ٧٢، ٧٣ .

(٢) مجموع الفتاوى ٧ / ٤٠٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ٧ / ٣٦٥ .

والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدُر هذا إلا مع نفاق في القلب، وزندقة، لا مع إيمان صحيح (١) .

قال العلامة الألباني: هذا لَيَدل على أن الإيمان بدون عمل لا يفيد وأن العمل الصالح من الإيمان، فالله حينما يذكر الإيمان يذكره مقروناً بالعمل الصالح، لأننا لا نستطيع أن نتصور إيماناً بدون عمل صالح، إلا لإنسان نتخيله خيالاً، آمن من هنا، قال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ محمد رسول الله ومات من هنا، هذا نستطيع تصوره، ولكن إنسان يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله يعيش دهراً مما شاء ولا يعمل صالحاً ؟ فعدم عمله الصالح هو دليل أنه يقولها بلسانه ولما يدخل الإيمان إلى قلبه (٢) .

وقال ابن تيمية: العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن (٣) .

يقول الفوزان: من كان يعتقد بقلبه ويُقر بلسانه ولكنه لا يعمل بجوارحه، عطَّل الأعمال كلها من غير عذر؛ هذا ليس بمؤمن (٤) .

ومن ذلك يتضح أن هذا الصنف لم يدخل الإيمان قلبه أصلاً، وإني لأعجب كل العجب ممن أخرجوا هذا الصنف من الإيمان، وصنَّفوا في ذلك كُتباً يدللون فيها على أن ترك العمل (٥) خروجٌ من الإيمان، رغم أنه لم يدخل الإيمان قلبه أصلاً، وما انتحى هؤلاء الكُتَّاب هذه الناحية إلا لعدم تفرقتهم بين هذا الصنف والذي قبله.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٤٠٢ .

(٢) في شرح الأدب المفرد الشريط السادس الوجه الأول، عند شرح حديث أبي ذر رضي الله عنه قيل: اي الأعمال خير ؟ ، قال إيمان بالله ... الحديث: نقلاً من: ما هكذا الحقيقة يا ابا رحيم ص ٨٥- ٨٦ .

(٣) مجموع الفتاوى ٧ / ٣٦٦ .

(٤) الإجابات المهمة في المشاكل الملمة ص ١٠٩ .

(٥) هكذا مطلقاً بغير قيد او شرط.

الخامس: لم يعمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً كاملة كماً وكيفاً :

وهذا القسم يستحيل وجوده شرعاً وعقلاً، لأنه لو عمل بجوارحه أعمالاً كاملة كماً وكيفاً، كان لا بد من وجود عمل القلب.

السادس: لم يعمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كماً كاملةً كيفاً :

وهذا القسم أيضاً يستحيل وجوده شرعاً وعقلاً، لأنه يمتنع أن يعمل أعمالاً تامة كيفاً بغير وجود عمل القلب.

السابع: لم يعمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كماً وكيفاً :

وهذا القسم موجود وبكثرة، وهم المنافقون الذين يُظهِرون خلاف ما يبطنون، وأولئك في الدرك الأسفل من النار.

يقول ابن تيمية: فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يسمى قولاً إلا بالتقييد، كقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح :١١] .

وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله (١) .

وقال: فمجرد توجيه العضو من غير عمل القلب لا يفيد شيئاً (٢) .

الثامن: لم يعمل بقلبه وجوارحه :

وهذا القسم هم الكفار على الحقيقة، وليسوا بمسلمين أصلاً.

وفي النهاية نصل إلى أن العاملين من أمة الإسلام ينقسمون إلى خمسة أقسام:

الأول : عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً كاملة كمًّا وكيفاً.

الثاني: عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصة كمًّا كاملة كيفاً.

الثالث: عمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كمًّا وكيفاً.

الرابع: عمل بقلبه، ولم يعمل بجوارحه لعجزه عن العمل.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٣٣٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢ / ٢٦٨ .

obeikandl.com

الخامس: لم يعمل بقلبه، وعمل بجوارحه أعمالاً ناقصةً كمًّا وكيفاً.

ومن خلال هذا العرض؛ وهذا التفصيل، نصل إلى فصل الخطاب في أمر الجهنميين، وهم الذين يدخلون النار ثم يخرجون بالشفاعات وهم فريقين:

الأول: من استحق دخول النار من القسم الثانى، وهم من رجحت سيئاتهم على حسناتهم، والذين سيخرجون بشفاعة الشفعاء من الأنبياء، والملائكة، والمؤمنين، وآخرهم من لم يعمل خيراً قط؛ لضآلة ما معه من الأعمال الصالحة.

الثاني: هم القسم الثالث، وهم الذين سيخرجون بشفاعة أرحم الراحمين، وأنهم أناس لم يعملوا خيراً قط؛ لأنهم عملوا أعمالاً حابطة مردودة غير صالحة.

ولكن كلا الفريقين معهم عمل قلب في غاية الضعف، يثبت لهم به إيمان يخرجون به من النار، ويدخلون به الجنة. لأنه لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة كما في الحديث، فعن زيد بن يثيع قال: سألنا علياً بأي شيء بُعثتَ في الحجة ؟ ، قال: بُعثتُ بأربع: (أن لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النَّبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسملون بعد عامهم هذا) [١].

لطيفة:

إن الله ليس كمثله شيء في ذاته وأفعاله وصفاته، فلما أذن للشفعاء أن يشفعوا وتكرَّم هو بشفاعته، اختص نفسه بشفاعة تدل أنه لطيف خبير، فإن تساوت الشفاعة اسماً وغاية، إلا أنها اختلفت جوهراً، فهم قد شفعوا بإذنه، وفيمن ارتضى بإظهار علامات الرضى عليهم، أما هو لم يأذن له غيره، ولم يدله على من شفع فيهم إلا علمه بالسر وأخفي.

---

(١) رواه الترمذى برقم ٣٠٩٢ وقال حسن صحيح، والنسائى فى السنن برقم ٢٩٥٨ ، وأحمد برقم ٥٩٤ ،وقال الأرنؤوط : صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير زيد بن أثيع والدارمى برقم ١٩١٩ ، وقال حسين سليم أسد : إسناده صحيح، وابن خزيمة برقم ٢٩٦٠ ، وقال الأعظمى: إسناده صحيح، والحاكم فى المستدرك برقم ٤٣٧٦ وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.